توقفنا في البحث السابق عند قوله تبارك وتعالى في الآية الثانية والثلاثين: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾.

الارتباط بين هذه الآية والآية السابقة في غاية الوضوح، ففي الآية السابقة كان يتكلم عن نعمة من معجزة وآية باهرة من آيات الله ونعمه، حركة السفينة في البحر، وفي هذه الآية التي هي موضوع الحديث في بحثنا اليوم أراد الباري تبارك وتعالى أن يستثمر هذه المعجزة وهذه النعمة؛ لبيان أن الإنسان في فطرته وجبلته خلق على أساس واحد، ولكن بعد ذلك في اختياراته بعد أن يوجد في هذه الدنيا وينمو ويتربص وتختلف من إنسان إلى إنسان، فالبشر بأجمعهم يشتركون في هذه الميزة أنهم عند الاضطرار يرجعون إلى فطرتهم، عند الضراء يتوسلون بربهم، لكنهم عند السراء ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾¹.

هذه الآية المباركة تريد أن تشير الحقيقة وتربط هذه الحقيقة بحركة السفن في البحر. بعد أن بينت الآية السابقة أن نعمة الله على البشر أن دبر لهم أن يكون الماء بكيفية والرياح بكيفية بحيث تجري السفن في البحر، لكن هذا البحر الإنسان فيه معرض للخطر، من هذه الفكرة جاءت هذه الآية المباركة، يقول: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ إذا شاءت إرادة الباري تبارك وتعالى لهذا الفلك وهو يمخر عباب الماء أن يحرك الرياح أكثر من الحاجة لحكمة يعلمها هو، فحينئذ تتلاطم الأمواج على هذه السفينة، وتصبح كل موجة منها كأنها طود عظيم فوق رؤوس من يركب السفينة أو كأنها غيمة عظيمة تضلل رؤوسهم، فحينئذ تزول ادعاءات الإنسان، ففي الحالات الاعتيادية هذا الإنسان المسكين صاحب

ادعاء، يتبختر بقوته، يرفع رأسه شامخاً، لكن في هذه اللحظة الحساسة يعرف مقداره، يعرف حاجته و فقره.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ موج إما كالغيوم العظيمة التي تظلل الأرض وتحجب نور الشمس وإما كالجبال الشاهقة، كالطود العظيم. حينما تظللهم هذه الأمواج العاتية يسقط ما في أيديهم، وتسقط صورة كبريائهم وادعائهم، فيرجع الإنسان إلى أصله، وفطرته.

حينئذ ﴿دَعَا اللَّهَ﴾ ليست مجرد دعوة، بل ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ لكن هذا الإخلاص إخلاص قهري، الآن لا يمدح عليه؛ لأنه لا يوجد طريق آخر له غير هذا، تقطعت السبل، وعرف الإنسان أنه لا حول له ولا قوة فيتمسك بالأمل، فيرجع إلى حقيقته ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾² لكن بعد أن يزول الاضطرار وتهدأ نفسه، هنا يحصل الامتياز، فئة تقتصد وتسير على خط الاستقامة وفئة ترجع إلى غفلتها وتبقى سائرة في خط الضلالة، هذه هي قصة الإنسان كائناً جبله الله على فطرة الإيمان والتوحيد ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾³ متعه في هذه الحياة فغفل عن ربه، جاءت ساعة الاضطرار رجع الإنسان إلى فطرته مقهوراً؛ لأن السبل تقطعت به ولم يبق إلا سبيل واحد، فتشبث به، فلما أنجاه وأرجعه إلى شط الأمان منهم من غفل ومنهم من كانت تلك التجربة صارخة في أعماق نفسه موقظة له فاستمر على تعلقه بربه. هذه هي قصة الإنسان وقصة الحياة.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ﴾ أي: فمنهم من يمشي على قصد السبيل، على السبيل المستقيم، منهم في هذا السياق تدل على التقليل فمنهم مقتصد.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ شبيه هذه الآية مباركة هناك آيات، منها: ما ورد في سورة يونس: ﴿هُوَ الَّذِي يَسِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ⁴ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا⁵ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ

² فاطر 15

³ الأعراف 172

⁴ أي: صحيح أن لفظ الفلك مفرد لكن المقصود الجمع، لذا قال وجرين بهم.

⁵ اعتقدوا.

الدِّينَ لَنْ أَنْجِيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (22) فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْكُمُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ⁶ هذه أيضاً تؤكد على قصة الحياة. وفي سورة العنكبوت: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ⁷﴾.

ففي سورة يونس وسورة العنكبوت نلاحظ أنه أغفل ذكر الطائفة المقتصدة؛ لأنه في تلك الآيات كان بصدد بيان ردة فعل الإنسان تجاه السراء والضراء من دون أي تفصيل، ولما كان الغالب من البشر أن تكون ردة فعلهم هي النكران والكفر والمضي في الغفلة والعمى أغفل ذكر الطائفة المقتصدة، بينما في هذه الآية ذكر الطائف المقتصدة وقدمها على تلك الطائفة.

مثل الفخر الرازي يقول: السبب في ذلك أنه في هذه الآية التي هي مورد البحث فيها زيادة في التخويف، من قوله: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ﴾ لما كان فيه زيادة في التخويف فهذه الزيادة في التخويف أثرت في بعض الناس، بينما تلك في سورة العنكبوت فقد كان الكلام ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾⁸ فلا يوجد شيء يدل على زيادة في التخويف ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾⁹ لأجل ذلك لم يتأثر.

هذا الكلام من الفخر الرازي غير مقبول؛ لأن هذا إن تم في آية العنكبوت لا يتم في آية يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل في آية يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ تخويف، بل فيها أكثر تفصيلاً مما في سورة الروم: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرِينَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ¹⁰ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ¹¹ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَنْ أَنْجِيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ فلا نسلم ما ذكره الفخر الرازي.

والذي يأتي إلى الذهن هو أن تقسيم الناس في الضراء والسراء في سورة لقمان يتناسب مع تمام السورة، حيث كنا نلاحظ من بداية هذه السورة كان يذكر لنا دائماً طائفتين من الناس، في بداية

⁶ يونس 22 - 23

⁷ العنكبوت 65

⁸ العنكبوت 65

⁹ العنكبوت 65

¹⁰ هذا الأمر الأول.

¹¹ الأمر الثاني، أي: أحيط بهم.

السورة ذكر لنا المحسنين ومن يشتري لهوا الحديث، فبمقتضى المقابلة هنا ناسب أن يذكر كلا الطائفتين، لا ما ذكره الفخر الرازي.

بقي قوله: ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ الختار صيغة مبالغة، الكفور صيغة مبالغة، كفور يعني المنكر للنعمة، الختار صاحب الغدر، كثير الغدر.

وجاء هذا التذييل في مقابل التذييل في الآية السابقة، ففي الآية السابقة كان عندنا صَبَّارٌ وهنا عندنا خَتَّارٌ، وفي الآية السابقة عندنا شكورٌ وهنا عندنا كفورٌ، كفور واضح من أنها في قبال الشكور، الشكور الذي يعتني بالنعمة ويشكر عليها، الكفور الذي ينكر النعمة.

له عليّ أيادٍ لست أنكرها وإنما الكفر إلا تشكر النعم

فالشكر في مقابل الكفر.

أما ختار كيف يقابل صبور؟ هذا نتكلم عنه في الدرس الجلسة القادمة.